أمثولة إستراتيجية من حرب غير عادية

الحياة ٨٨/١٠/٢٦

بقلم: غسان سلامة*

يناقش هذا المقال بعض أسباب الهزيمة الإيرانية في حرب الخليج، متوقفاً، خصوصاً، عند ما يعتبره عائقاً ايديولوجياً دون اختيار طهران سياسات ملائمة.

■ ان يخرج العراق من حربه مع ايران وقد سجّل نقاطاً هامة، إن لم يكن قد انتصر تماماً، أمر يتوقف عنده حاليا معظم المحللين الاستراتيجيين في العالم ذلك ان مسار الحرب الطاحنة على ضفاف شط العرب قد تبدّل بصورة جذرية في السنة الاخيرة من الحرب، بحيث اعترفت ايران بهزيمتها، على الرغم من ان التوقعات، في جلّها، كانت تؤكد خروج ايران من الحرب منتصرة بشكل او باخر. من هنا الانطباع الواسع بان حرب السنوات الثماني، كانت حرباً غير عادية، بنتيجة غير متوقعة.

ومن اكثر الناس اهتماما بهذا الأمر، المحللون الاسرائيليون وذلك لسببين اساسيين: الأول ان الاسرائيليين اجمعوا منذ بدء الحرب على اعتبارها «هدية من السماء»، لأنها نقلت نقطة الثقل نحو الشرق، وبالتالي فهي انهكت قوى طرفين اقليميين كبيرين، بحيث حصل هزال شديد في ثقل الضغط الاقليمي على اسرائيل من هنا فان قادة اسرائيل لا يتلكاون في اعتبار انتهاء الحرب امرا مضرا بمصالح اسرائيل، وذلك حتى في تصريحاتهم العلنية وبعضهم يضيف أن انتهاءها على هذه الصورة، كان من اسوا السيناريوهات الممكنة للمصالح الاسرائيلية ، إذ خرج الطرف الاقرب جغرافيا، والاكثر عداء لاسرائيل وقد سجل كسباً واضحاً، وخبرة قتالية هامة قد يستفاد منها عربياً للحرب ضد اسرائيل.

اما السبب الثاني فهو التماثل الذي يراه الاسرائيليون بين وضعهم الذاتي في نزاعهم مع العرب، وبين وضع العراق في حربه مع ايران. ذلك ان اسرائيل هي، كالعراق، الطرف الأضعف جغرافياً وديمغرافياً في المعادلة الحربية. ومن هنا ضرورة اتكالها، كالعراق، على التفوق النوعي، المالي والتكنولوجي، في الحرب مع العرب. ومن هنا فخروج العراق فائزاً، إن لم يكن منتصراً، من شانه ان يقوّي معنويات اولئك الاسرائيليين الذين اعتقدوا دوما ان دولتهم قادرة على ربح حرب قصيرة في الزمن، ولكنهم سيخسرون بالضرورة حربا تطول مدتها. فالحرب العراقية - الإيرانية اثبتت امكانية ان يربح حربا طويلة الطرف الاقل قدرة من الناحية الجغرافية والديمغرافية والاقتصادية.

الضارب والساكن:

في الواقع، فإن الاطار النظري للمعادلة، هو اطار «القوة الضاربة» في مقابل «القوة الساكنة». وكنا قد تعودنا ان نرى القوى الساكنة وقد خرجت منتصرة باستمرار من الحروب الطويلة. والمثال التقليدي لذلك هو روسيا القيصرية في حروبها مع نابوليون، وروسيا السوفياتية في حربها ضد المانيا النازية. وفي الحالتين فإن القوة الروسية الساكنة انتهت بالانتصار على القوة الضاربة النابوليونية والهتلرية، من خلال اعطائها كسبا تكتيكياً في اول النزاع، وبالتالي من خلال استنزاف قدراتها الضاربة تدريجا حتى الانهاك فالانسحاب.

في حرب الخليج، توقع معظم المحللين تطبيقا جديدا لهذه القاعدة. فبعد الانتصار التكتيكي العراقي في الاسابيع الاولى من الحرب، بدا ان الايرانيين سيبدأون تجميع قوتهم الساكنة وتطويعها بهدف استنزاف الطرف العراقي تدريجا وتمهيدا للانتصار التام عليه. وقد حصل انقلاب هام في المعادلة الحربية في ربيع ١٩٨٢، حيث استطاعت ايران استرجاع جل الاراضي التي كان العراق احتلها، وبدات بالضغط الشامل على العراق، الذي راح المحللون يتوقعون انهياره بين يوم واخر.

انذ، بعد مرور سنتين على بدء الحرب، واقل من ذلك، بدا ان القاعدة التقليدية (انتصار القوة الساكنة في الحرب الطويلة) هي قيد التطبيق مرة اخرى فايران هي القوة الساكنة من جميع الوجوه تقريبا. فمساحة ايران تفوق مساحة العراق اضعافا، وانفتاحها البحري والجوي على الخارج اوسع بكثير بينما المدخل البحري للعراق اختنق منذ الايام الاولى للحرب. ويفوق الناتج الداخلي الايراني مثيله العراقي خمسة اضعاف في الحالات الاعتيادية، اضف الى ذلك ان سكان ايران يفوقون سكان العراق ثلاثة اضعاف، ونسبة التوالد هي ايضا اعلى، بل يمكن القول انه منذ انتصار الثورة في ايران وُلد من الإيرانيين ما يوازي عدد سكان العراق جميعاً.

لكن وضوح المعادلة في الحالة الخليجية لم يسفر عن تطبيق القاعدة، بل بدا كسب العراق النهائي نوعا من الاستثناء الباحث عن تفسير. كيف يمكن تفسير نجاح القوة الضاربة في حرب الخليج، ولماذا لم تنتصر القوة الساكنة الإيرانية هنا، كما في غيرها من الحالات؟

اسباب لمصلحة العراق

سبب اول واساسي هو تمكن العراق من الحصول على دعم مالي كثيف، والمال عصب الحرب من دون شك. ولقد انفق العراق مدخراته السابقة (حوالي ٣٠ مليار دولار) واستطاع الحصول على مساعدات وقروض كبيرة تقدر اليوم بحوالي ٦٥ مليار دولار، جلّها من الدول الخليجية العربية.

هذا الدفق المالي الكبير وظفه العراق اساسا في مجال التسلح الكثيف والمتقدم ولذلك فان المعادلة في سلاح الجو تارجحت بين ٦ الى واحد و١٠ الى واحد لمصلحة العراق. واستطاع العراق ان ينشر على الجبهة عددا مشابها للعدد الإيراني (حوالي مليون عسكري)، بل ان بغداد استطاعت في مرحلة معينة نشر عدد من العسكريين اكبر من العدد الايراني، من خلال تعبئة شديدة الكثافة لقواها البشرية. وبينما كان دفق السلاح السوفياتي مستمرا على العراق (بعد توقف حوالي ١٨ شهرا في مطلع الحرب)، استطاعت بغداد الحصول على سلاح غربي متطور، لا سيما من فرنسا التي زودتها بطائرات سوبر اتندار وصواريخ اكزوسيت الفعالة.

سبب ثالث اساسي، مرده الى التطور النوعي في القوة الضاربة العراقية نفسها. فهي قوة لم تبق ثابتة على ما كانت عليه في مطلع الحرب، بل تطورت في صورة ملموسة مع تطور الحرب نفسها، بحيث كان «الضرب» يتغير نوعيا فبعد سنتين على بدء الحرب كان العراق تمكن من تطوير قدراته الجوية لضرب الأهداف الإيرانية البعيدة المدى، والسماح لطائراته الحربية بالتموّن بالوقود وهي في الجو. ثم جاءت الصواريخ الفرنسية لتؤدي المصادر الاقتصادية الإيرانية، وبعد مرور سنوات قليلة، حصل تطور جديد وعميق في مجال الصواريخ طويلة المدى.

فالعراق استطاع، بمساعدة مصرية وغربية وبرازيلية تطويل مدى الصواريخ السوفياتية لديه بحيث استطاع ضرب طهران طبعا كان ثمن هذا التطويل اضعاف القدرة التدميرية للصاروخ. وبالفعل نادرا ما ادى صاروخ من هذا النوع الى مقتل اكثر من ٢٠ او ٣٠ شخصا. لكن اثره النفسي والسياسي كان عظيما. ويبدو ان عشرات الالوف من اهالي طهران غادروها الى الارياف بعد سقوط الاعداد الاولى من هذه الصواريخ.

لكن السبب الأساسي في نجاح القوة الضاربة العراقية في الانتصار على القوة الساكنة (او الاستيعابية) الإيرانية في حرب غير خاطفة يجب البحث عنه في ايران نفسها. فطهران نظام ثوري، اضطر بسبب اهدافه الثورية بالذات، ان يتبعْ استراتيجية عسكرية وممارسة ديبلوماسية كانتا باستمرار متناقضتين مع تطلعاته الايديولوجية.

العائق الايديولوجي!

فالتطلعات الايديولوجية هذه (تصدير الثورة الاسلامية، لا شرق ولا غرب، اسقاط النظام العراقي واقامة حكومة اسلامية في بغداد) شكلت في الواقع العائق الاكبر امام اختيار ايران للسياسات الاكثر ملاءمة لوضعها كقوة استيعاب. وبدا ان طهران، التي كان في استطاعتها استنزاف العراق ديمغرافيا ومعنويا وماديا، اختارت على العكس استراتيجية هجومية اصطدمت باستمرار بالدفاعات العراقية، ولا سيما في حملة كربلاء - ٥ المدمرة للغاية في مطلع ١٩٨٧.

هذا العائق الايديولوجي جعل ايران، القوة الاستيعابية، تتبع خططا عسكرية، هي اقرب الى خطط القوة الضاربة، بينما لم يكن لديها القدر الكافي من لوجستية الضرب المدمر والمركز لاتباع هذا النوع من الخطط ولم يكن التفوق المعنوي المنبثق من حرارة الثورة الاسلامية يكفي لاقناع ملايين الإيرانيين باتباع خطط هجومية من دون الوسائل المادية واللوجستية والعسكرية الضرورية لذلك من هنا فالمراهنة على الروح الثورية في حرب خارجية طويلة الأمد لا تبدو امرا واقعياً، خصوصا إن كان المطلوب من السكان الهجوم والمبادرة والتضحية، اي التحول الى «قوة ضاربة» نواتها الحقيقية البشر انفسهم، لا المعدات التي في تصرفهم.

وهذا العائق الايديولوجي منع ايران ايضا من الاستفادة من سبل الانفتاح والتقارب مع الاتحاد السوفياتي عندما كان ذلك ممكناً. فكم من مرة قيل لنا ان رفسنجاني على وشك زيارة موسكو، او ان الانبوب النفطي بين البلدين عاد للعمل لكن ذلك لم يحصل لأن الايديولوجيا كانت نقيض الليونة الديبلوماسية، على الرغم من «الصفقات السرية» (مثل ايران - غيت وشراء ٥٠٠٠ طن من الاسلحة الإسرائيلية) التي كانت تتم من دون إعلان للراي العام، ومن دون تناقض معلن مع الايديولوجيا.

قوة استيعاب تحوّل نفسها قوة ضاربة فتخسر حربا كان يجب ان تُربحها: هذه حال ايران الثورية في حرب شط العرب. غريب ما تفعله الايديولوجيا، بعقول الناس!

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الأولى، ومعهد العلوم السياسية في باريس